

## العقادُ فيلسوفًا استشرافٌ للرؤى العقّادية في الفنِّ والجمالِ

أحمد عبد العال رشدي

يصعبُ الفصلُ بينِ مجالي الأدبِ والفلسفةِ، لا سيما عند أديبٍ كـ"العقاد" يتخذُ أدبَهُ وسيلةً لغايةٍ فلسفيةٍ بحثيةٍ، فليس بين ظواهرِ فكرِهِ وبواطنِهِ حدٌّ فاصلٌ، فقد صدرتْ عن العقاد آراءٌ تميزتْ بالبداةِ، التي هي مستودعُ التصوراتِ والأخيلةِ، ولا سلطانَ عليها من البحثِ أو الروايةِ المسبقةِ، وكانت هي نفسُها التي تجلي لك أعمقَ أعماقِهِ، من حيث الزكّانةِ والمثالبِ.

فهو أديبٌ سامٍ ومفكّرٌ راقٍ، وعلى كلِّ لا يمكن تجاهلُ البعدِ الفلسفي في إسهاماته ومؤلفاته، بلا إجحافٍ ولا مغالاةٍ، فقد كتبَ عشراتِ الكتبِ ومئاتِ المقالاتِ، التي تتصلُّ من حيث الموضوع والمنهج بالفكرِ الفلسفي بصورةٍ مباشرةٍ وغير مباشرةٍ، وتتصلُّ من قريبٍ ومن بعيدٍ بالجوانبِ الفلسفيةِ بصورتها العامةِ والخاصةِ، فلم يكنْ فيها ممن يطوفون حول هوامشِ الأمورِ، أو يحومون حول النارِ وهالاتها كالهاموش دون الخوضِ في لواعجها..

تحدث العقادُ عن قضيةِ الجمالِ والحقيقةِ من منظورِ الفنِّ، بأن الدنيا جمالٌ، نصلُّه من طريقِ الضرورةِ، والدنيا روحٌ نلمسُهُ بيد من المادةِ، فالروح هو الحقيقةُ، والمادةُ وسيلةُ الإحساسِ به، ورأي العقادِ في قضيةِ "الجمال" أن الحقيقةَ الفنيةَ أسبقُ من الحقيقةِ الفلسفيةِ، وأنها الأساسُ في فهمِ ظواهرِ الكونِ، وهو منهجٌ يتفقُ وطبيعةُ العقادِ الشاعرِ الذي يقول:

الشعرُ من نفسِ الرحمنِ مقتبسٌ ... والشاعرُ الفدُّ بين الناسِ رحمنٌ "١"

لأنه يحسُّ الكونَ بالوعيِّ والشعورِ قبل أن يدركهُ بالحواسِ، ليؤكد أن الفنانَ رسولٌ من رسلِ الوعي الإنساني، ورائدٌ من روادِ القيمِ الروحيةِ، وأكثرهم استجابةً لنداءِ الحريةِ، واحتكاكًا بالجهدِ الخلاقِ

الذي يكمن وراء الحياة، وهذا الجهد من "الله" إن لم يكن هو "الله" ذاته. هكذا كان مبحثُ الجمالِ في الصدارة من هذه الآراء، وهو الرأي الذي ربط فيه بين الجمالِ والحرية، فذهب إلى أن الجمالِ هو الحريةُّ وأن الشيءَ جميلٌ بمقدارِ ما هو حُرٌّ.

يتفقُ فيلسوفنا مع كثيرٍ من الفلاسفةِ الغربيين في توجيه الاستطيقا "علم الجمال" إلى دراسةِ الجمالِ من حيث التذوقِ، سواء كان الجميلُ من صنعِ الطبيعةِ أو من إبداعِ الفنان. لكن إذا كان فيلسوفٌ مثل سانتيانا يقف عند جعلِ الإحساسِ بالجمالِ شرطَ اللذةِ الجماليةِ أو الرضا الاستطريقي، وناقِدٌ مثل "رتشاردز" يذهب في كتاب "أسس علم الجمال" إلى أن الجمالَ عبارةٌ عن تجربةٍ شعوريةٍ يمرُّ بها المشاهدُ أو المستمعُ أو القارئُ، فإنَّ العقادَ - فيلسوفَ العقلِ والحريةِ - يعلو على التفسيرين "الحسي، والسيكولوجي"، ويتخذ من "التمييز" شرطًا لقياس اللذة الجمالية. فالتمييزُ فعلٌ من العقلِ والإدراكِ، وليس من انفعالاتِ الإحساسِ والوجدان، وعلى ذلك فهو أكثرُ تعبيرًا عن الحرية، يقولُ العقادُ: "ثم ينبغي أن نفرِّقَ أبعَدَ التفريقِ بين تمييزِ الجمالِ والتعلُّقِ بالشيءِ الجميلِ، فإنَّ التعلُّقَ من الهوى وهو من ضروبِ الضرورةِ القاهرة، أما التمييزُ فهو أبعدُ ما يكون عن عسفِ الضرورةِ وجبروتها. فلا حريةِ إذن للإنسانِ أرقى من حريةِ التمييزِ بين محاسنِ الأشياءِ، ولا حريةِ لأمةٍ ليس لها نصيبٌ من الفنِ الجميلِ."<sup>٢</sup>

وللعقادِ رؤيةٌ أخرى مغايرةٌ للنظريتين اللتين تحددانِ دورَ الفنِ في الحياةِ "الفن للفن" وهي الأكثرُ شيوعًا وتمثلتُ واضحةً في أعمال "أوسكار وايلد"، و"الفن للحياة" وتمثلت في أعمال "مكسيم جوركي"، وموقفُ العقادِ من كليهما أن الفنَ لموضوعه، وهو تجليةُ الخيالِ والشعورِ على نحوٍ فيه خلقٌ وإبداعٌ وتقريرٌ للذاتِ، قائلًا: "إننا نرتقي في تقديرِ الفنِ كلما ارتقيناهُ في تقديرِ الحسنِ والبداهةِ، وفي العلمِ بوظيفةِ الخيالِ، فليس الفنُّ مقيَّدًا بالحسِّ ولا بالمدركاتِ الحسيةِ، وليس الخيالُ خداعًا منعزلًا عن حقائقِ الأشياءِ، بل هو وظيفةٌ مبدعةٌ تنفذ من أسرارِ الخلقِ إلى الصميمِ."<sup>٣</sup>

وهو رأيٌ يتفقُ مع نظريتهِ الاستطيقيةِ من ناحيةٍ أخرى مع فيلسوفِ الجمالِ "كولنجود" بأنه لا بد من التفريقِ بين نوعين من الفن: الفن الذي يقوم على الخيالِ، والذي يقوم على الوهمِ والخداعِ. "فالفن الخادع هو الذي يرضي شهوةً من الشهواتِ يفقدُها الإنسانُ في عالمِ الحسِّ فيستحضرُها على نفسه في عالمِ الأحلامِ، أما الخيالُ فإنه يقومُ بوظيفتهِ كما تقومُ الحواسُّ بوظيفتها دون أن يقصدَ إلى الخداعِ، ودون أن يعمدَ إلى إرضاءِ الشهواتِ، وإن جاء منه عفوًا ما يخدعُ الحسَّ أو ما يرضي الشهوةَ، ويمتازُ فنُّ الخيالِ بأنه لا يتوخى التسليَّةَ ولا إثارةَ الإحساسِ، بل يعمدُ إلى الأشياءِ التي يحسُّها الناسُ إحساسًا مبهمًا أو مضطربًا فيجلوها لهم، ويرفعُها أمامهم من قرارِها الغامضةِ إلى وضوحِ الوعي والتصورِ المبيِّنِ."<sup>٤</sup>

وتحدث العقاد عن الذاتية بأنها جوهر الكائن وليست مجرد مظهر معين لبنية الجسم، وأنها تترك طابعها على كل جزء في هذا الكل رغم بقائه غير قابل للتجزؤ. كما أنها تتخلل وجود الكائن كله، مدلاً على أن الفعل الحر إنما ينبع من الشخصية بأكملها وينبثق من كل أعماق الذات.

وهو ما قصد إليه الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون بأننا أحرار حينما تصدر أفعالنا عن شخصيتنا بأكملها فتجيء معبرة عنها ويكون بينها وبين شخصيتنا من التماثل ما بين الفنان نفسه وإنتاجه الفني".

لكن العقاد يعود فيقول: "ليس علينا إلا أن نحب الحرية كما نهتف باسمها؛ ليكون لنا ما نريده من الفن الجميل، بل ليكون لنا كل ما يتاح للأحياء من مطالب الحياة".<sup>5</sup>

ولم يكن العقاد فيما عرضناه ممن يطنبون في غير طائل ولا فياضاً بلا حاصل.. إنما كان يتحكم بتلابيب فكرته جيداً كالربان الماهر الذي تمرس في مصارعة العباب حتى أسكن جميع ثوراته، واستطاع بمثانة أسلوبه الفريد أن يتشعب ويتبحر فيسبح عبر موانئ عدة هادئة ومتواترة دون اضطراب أمواج الأدب العاتية، ولم يقتصر دوره على تحليل الشخوص وعرض طبائع النفوس دون أن يمتلك العمق الذي يجعله ينفذ إلى الجوهر في روية واقتدار.. ذلك هو الفيلسوف العقاد، الذي أبدى آراءً متفرقة في مختلف القضايا التي خالجت شعوره وجرت بحسبانه، ففي قضية العدل والقوة يرى أن يكون القوي مفتتتاً طاعياً، يخامر مواضع الدل في قلوب الضعفاء ويأخذ بها إلى أسباب القوة، خير من أن يكون عادلاً ينصف الضعفاء من نفسه، فيظل قوياً بلا منفعة.

ومن بين مؤلفاته ومقالاته - التي لا تخلو من دلالات فلسفية، ما كتبه عن فرنسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي، حين خصص له كتاباً مستقلاً، وما كتبه عن ابن رشد سواء في كتابه عن ابن رشد، أو في عرض لبعض آرائه بمجلة الكتاب وغيرها من مجلات تصدر بمصر، وكتابه عن عقائد المفكرين في القرن العشرين، والفلسفة القرآنية، وإبليس، ومحمد عبده، والإسلام في القرن العشرين، وأثر العرب في الحضارة الأوروبية، وخصص كتاباً لدراسة آراء الشيخ محمد عبده، الذي توفي عام ١٩٠٥، ويتحدث في هذا الكتاب عن حياته الفكرية وعلاقته بجمال الدين الأفغاني وعن آرائه الإصلاحية، ويعد من الكتب المهمة في مجال الفكر الفلسفي العربي المعاصر، ويؤكد أهمية السعي لترجمة أعمال الفلاسفة الكبار أمثال أفلاطون وأرسطو، فضلاً عن مقالاته وأحاديثه في الإذاعة التي نشرت في كتب عديدة له، إلى جانب تحليلاته الفلسفية حين يتصدى للكتابة عن شخصية أو أكثر من الشخصيات التي تمزج في أقوالها أو في شعرها بين الجانب الفلسفي والجانب الأدبي ك"ابن الرومي" وغيره من أدباء العرب. بل أدباء الغرب أيضاً كشكسبير وخصص له كتاباً

مستقلًا هو التعريف بشكسبير وبرنارد شو وعشرات الأدباء الغربيين، فقد ولدت فيه تلك الطاقة الفكرية نظرةً فلسفيةً يستطيع أن يجابهَ بها أساطينَ الغربِ وأربابَ الإغريق.

وأخذ من كلِّ فنٍ بطرفٍ، وبلورها في محاولةٍ جادةٍ لإرساءِ منهجٍ فلسفيٍّ خالصٍ خاص به، فما أمَّ به من عمقِ البحثِ والفتحِ ودقةِ الفحصِ والمحصِّ جعله يصيبُ بحظٍّ غيرِ قليلٍ من آلياتِ الفيلسوفِ المتمدن، ناهيك عن أن فلسفته كاملة أم ناقصة، من صلبِ فكرهٍ وخاصِّ رأيهِ أم رضعها من محابرٍ غيرهِ.. فمنهجُ العقادِ عقلائيٌّ بحث، والفيلسوفُ إنسانٌ له كلُّ صفاتِ بني الإنسان، وليس عقلاً بارداً بارئاً من كل ما يمت إلى العواطفِ البشريةِ بصله، يحبُّ الحقيقةَ بعقله وقلبه ويبحثُ عنها بهما، ولكنه يعملُ جاهداً ليجعلَ من عقله موجهاً وقائداً لقلبه على ألا يلغيه ويطغى عليه".

إننا نعمطُ العقادَ حقُّه إذا قصرنا فكرهُ على المدرسةِ الانكلوسكسونية، فنظره عميقةٌ في فرديةِ العقادِ وإرادتهِ وعبقرياتهِ وضراوةِ عداوتهِ للشيوعيةِ والاستعمارِ، لحريةً بتأكيد أن ثقافتهِ الإنكلوسكسونية ليست إلا رافداً من روافدهِ المتعددةِ الغزيرة، فاستعراضٌ موجزٌ يسيرٌ للأطوارِ التي تدرجتُ فيها "العقيدة الإلهية" عند البشرية كما يراها العقادُ لوجدناها سارت في قناتين مختلفتين على مسارِ التاريخِ الإنساني: قناة الفلسفة وقناة الديانات المحرفة؛ سواء كانت سماويةً أم وضعيَّةً وفي كليهما لم تتدرج في صعودٍ دائمٍ بل كان مسارها يتمثل في خطٍّ بيانيٍّ بين صعودٍ وارتقاءٍ إلى قمةِ التوحيدِ والتنزيه.

أما العقيدةُ الإسلاميةُ في الإله فهي رأسُ العقائدِ الدينيةِ وأسمائها بجمليتها وتفصيلها عند العقاد؛ وصححت أخطاءَ الفلاسفةِ في شطحاتهم النظرية، وقومتُ تحريفاتِ وتشويهاتِ معتنقي الدياناتِ القديمةِ السماويةِ والوضعيةِ.

## الهوامش

١" ديوان من دواوين.. يضم تسعة أجزاءٍ منها "عابر سبيل" قصيدة "نفثة" "نهضة مصر" يناير ١٩٩٧.

٢" كتاب "مطالعات في الكتب والحياة" صفحة ٦٢ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة"

٣" كتاب "دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية" للعقاد صفحة ٦١ - ٦٢ "نهضة مصر".

ووردت في طبعة أخرى للكتاب "مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة" صفحة ٦٤.

٤" نقلاً عن مقالة للعقاد باسم "الفلسفة والفن" بكتاب "دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية" صفحة ٦١ "دار نهضة مصر".

ووردت في طبعة أخرى للكتاب "مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة" صفحة ٦٣

٥" كتاب "مطالعات في الكتب والحياة" للعقاد صفحة ٦٦ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة".